معهد الدين القيم

بإشراف الشيخ أبي الحسن علي الرملي

تفريغ دروس جوامع الأخبار

شرح الشيخ محمود الراعوش حفظه الله

المستوى الثاني

الدرس رقم (32)

التاريخ: الاثنين 02/جمادى الآخرة/1441 هـ

27/كانون الثاني/2020 م

شرحُ الأحاديث: (٨١، ٨٢)

- ◊ ملخص الدرس:

✿ الحديثُ (٨١): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ» متفق عليه.

◈ هذا الحديث في فقه السؤال، والتأدب بآدابه، وفي التوسط ما بين ترك سؤال العلماء بالكلية المؤدي إلى الجهل بالشريعة؛ وبين تكلف الأسئلة عما لم نكلف به، مما لم ينزل في القرآن، ومما لا ينفع وقد يضر.

◈ولابد لتحقيق ذلك من إعمال أصلين، لكل أصل أدلته:

● الأصل الأول: الحث على السؤال عما ثبت في الشريعة: لتعلمه وإزالة شبهاته، ثم اعتقاده والعمل بمقتضاه، ومن أدلة هذا الأصل:

١ـ {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل:٤٣][الأنبياء:٧]

٢ـ «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» متفق عليه.

٣ـ"ألا سألوا إذْ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال» أبو داود (٣٣٧) وغيره.

● الأصل الثاني: النهيُ عن كثرة السؤال: بمعنى ترك التعمق فيما لم ينزلْ في القرآن، وترك السؤال عما لا نفع فيه ولا عمل يقتضيه، أو يكون فيه ضرر على العقيدة.

● وهذا الأصل نوعان:

نوع خاص بوقت نزول الوحي، ونوع عام؛ في وقت الوحي وإلى قيام الساعة.

¤ النوع الأول: هو النهي عن السؤال عما لم ينزل فيه تحليل أو تحريم في القرآن.

والحكمة منه: التيسير على الأمة حتى لا يُفرض عليها شيء بسبب هذا السؤال، وهذا

خاص بوقت نزول الوحي.

ومن أدلة هذا النوع:

١-{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [المائدة:١٠١]

٢- حديث الترجمة والشاهد منه «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ» متفق عليه.

٣- قال ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَعْظَمَ المُسْلِمِينَ جُرْمًا، مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ» متفق عليه.

¤ النوع الثاني: النهي عن التعمق فيما لا ينفع أو يضر: وهذا منهي عنه في كل وقت وإلى قيام الساعة.

مثاله: السؤال عن الغيبيات بكيف؟ ولم؟... كالسؤال عن القدر؛ لم قدر الله كذا؟ ولم لم يقدر كذا؟

أو السؤال عن كيفية الصفات الإلهية: كيف استوى؟ كيف يجيء؟ كيف يضحك؟ كيف يتكلم؟ وما شابه.

ومن أدلة هذا النوع:

١- قوله عليه الصلاة السلام" إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ المَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ " متفق عليه. والشاهد قوله: "وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ".

٢- وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا. رواه مسلم (٣٦٧٠). والمراد البدع بالتعمق والزيادة على الشريعة ويدخل في ذلك السؤال المذموم.

٣ - وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ» وهو في حكم المرفوع، لأن الناهي هو الرسول عليه السلام، والمراد كثرة السؤال والبحث في الأشياء التي لم نكلف بها.

٤ـ واتفق السلف الصالح على أن السؤال عن كيفية الصفات بدعة فمن ذلك قول الإمام مالك للذي قال: (كيف استوى؟) فقال: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة".

٥ـ وحديث الترجمة فيه دليل على هذا النوع أيضا، لأن النهي عن التعمق عام يشمل وقت نزول الوحي وما بعده وإلى قيام الساعة.

◆ قوله: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ» وقال في رواية مسلم:"بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ" فعِلةُ النهي كثرة السؤال إلى حد التعمقِ والتنطعِ فهلكوا؛ لأنهم سألوا عن أشياء ثم لم لما فُرضت عليهم لم يمتثلوها.

ولذلك قال تعالى بعد أن نهى عن كثرة السؤال عما لم ينزل: {قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ} [المائدة: ١٠٢].

◆وقوله: "فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ». أمر بالعمل وألا يلتفت العبد إلى غيره، وأن يسأل ليعتقد ويعمل لا ليجادل ولا ليتكلف ما لا يعنيه ولم يؤمر به.

◆ وفيها أن النهي ليس مقيدا بالاستطاعة، فيجب ترك ما نهى الله عنه إلا ما اضطر إليه، لأن الاضطرار ليس داخلا في النهي.

وأما الأمر فمقيد بالاستطاعة، ومفهوم الاستطاعة هو: بذل الوسع في فعل المأمور، فإن عجزت سقط عنك التكليف بقدر عجزك، ولا يسقط عنك ما تستطيعه.

وعبر العلماء عن هذا بقولهم:" الميسور لا يسقط بالمعسور"، وهذه قاعدة عامة تحتها أفراد كثيرة جدا.

ولذلك فالحديث من جوامع الكلم.

◆ وفي الحديث إرشاد إلى حسن التأدب مع العالم والمعلم وذلك بحسن السؤال؛ وبحسن

القصد فيه، وعدم الإكثار على الشيخ، وترك السؤال فيما لا ينفع فضلا عما يضر، أو لم يقع، أو لامتحان الشيخ، هذا كلَّه ضار جدا لطالب العلم، لأنه يضرّ نيَّته، فيُحجبُ عنه العلمُ، وإن حصَّل العلم بهذه النية الفاسدة ضرَّه علمُه ولم ينتفعْ به.

✿ الحديثُ (٨٢): عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ، لَا يَرْحَمْهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ» متفق عليه واللفظ لمسلم.

◆ ويجوز في(يرحم) الرفع على أن الجملة خبر، والجزم على أنها شرط.

◆هذا الحديث فيه بيان أهمية خلق الرحمة عند الإنسان، وأنه من أسباب رحمة الله له، وفيه خطورة ترك الرحمة الواجبة.

◆فقال «مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ» أي الرحمة الواجبة عليه؛ من العدل وعدم الظلم وكف الأذى وإغاثة الملهوف وإطعام الجائع المضطر وإيواء من لا مأوى له... وغير ذلك الكثير.

أو الرحمة المستحبة: من حسن المعاملة والبشاشة ولين الجانب وغير ذلك.

◆قال "لَا يَرْحَمْهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ» أي يعامله الله من جنس عمله، وبحسب ما يعامل به الناس يعامله الله.

◆ والرحمة مطلوبة مع الإنسان والحيوان ومع الكافر غير المحارب، أما المحارب فلا رحمة له، بل من رحمته الغلظة معه؛ لردعه ومنعه عن محاربة الحق.

◆ والرحمة مطلوبة في الدعوة إلى الله ومع الوالدين والأرحام والأقارب، وبين الازواج، ومع الضعفاء من كبار السن والأطفال والمرضى والأسرى والفقراء والنساء وسائر الخلطاء؛ ومع المسلم والكافر المسالم بما لا يتنافى مع الشريعة، ومع الحيوان أيضا.

◆ والرحمة نوعان: جبلية ومكتسبة.

وكل من جبل على الرحمة أو جبل على القسوة مأمور بالرحمة، شملهما حديث الترجمة وغيره من النصوص.

فإن كون الإنسان ابتلي بخصلة من خصال الشر وجبل عليها؛ ليس عذرا له لفعل الشر، لأنه بإمكانه التخلص من خصال الشر، وهو مأمور بذلك.

فعليه أن يتخذ جميع الأسباب التي تخلص نفسه من شرورها، كالدعاء، وتعلم الخير والعمل به، ومخالطة الرحماء بقصد التخلق بأخلاقهم؛ طاعة لله تبارك وتعالى.

◈ وفي الحديث إثبات صفة الرحمة لله رحمة حقيقية وأنها صفة ذات وصفة فعل، وأنكر المعطلة صفة الفعل بزعم انها تقتضي تشبيه الله بخلقه، وفسروها بلازمها فقالوا المراد إرادة الإحسان، وهذا التأويل باطل، لأن الرحمة شيء وإرادة الإحسان شيء آخر، وأهل السنة والجماعة يثبتون الصفة حقيقة ويثبتون لوازمها وآثارها ما لم يكن فيها نقص

الدرس الثاني والثلاثون من شرح "جوامع الأخبار"

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه، أما بعد..
فهذا هو الدرس الثاني والثلاثون من دروس "شرح جوامع الأخبار"، وفيه شرح الأحاديث (٨١، ٨٢)..

﴿شرح الحديث الحادي والثمانين﴾

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ» متفق عليه[1*].

هذا الحديث له مناسبة ستأتي في الشرح إن شاء الله، وهو في بيان فقه السؤال والتّأدُّب بآدابه، وفي التوَسُّط في ذلك بين الإفراط والتفريط، أي بالتّوسّط بين طرفين: بين ترك السؤال بالكلية المؤدي إلى الجهل بالشريعة؛ وهذا تفريطٌ مذموم، وبين التّعمُّق والتّنطُّع بالسؤال عمّا لم نُكَلَّف به، أو عمّا لا ينفع أو عمّا يضر؛ وهذا إفراطٌ مذموم.
فليس كل سؤالٍ جائزاً، وليس كل سؤالٍ نافعاً، فإنّ الشيطان لا يزال يوسوس للإنسان: مَن خَلَقَ كذا؟ مَن خَلَقَ كذا؟ حتى يقول له: مَن خَلَقَ الله؟[2]

هذا سؤال! لكنه سؤال فاسد عقلاً ومُحَرَّم شرعاً، إذ كيف يكون للخالق خالق؟ لا يصح عقلا ولا شرعا أن يكون الخالق مخلوقاً وإلا لزم التسلسل، فهو سؤال فاسد مِن أصله.

1- أخرجه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧ / ١٣٠- ١٣١ - ٤١٢).
2- البخاري (٧٢٩٦) ومسلم (١٣٤).

ولذلك قال العلماء: (حُسنُ السؤال نصف العلم)، أي ونصفه الآخر في حُسن الجواب، أنت عليك أن تحسن السؤال، والعالم عليه أن يحسن الجواب، فمَن أحسنَ السؤال ووجد مَن يُحسن له الجواب فإنه يكتمل علمه في تلك المسألة.

ومتى يكون السؤال حَسَناً؟ ومتى يكون سيئاً وفاسداً؟

الجواب:

وردت أدلةٌ من الكتاب والسنة تأمر بالسؤال، ووردت أدلةٌ أخرى تنهى عن السؤال، والضابط: هو التوسُّط بين الإفراط والتفريط بحسب ضوابط الشرع في هذا الشأن، ولتفصيل ذلك نقول:

إنّ هذا الموضوع يتجاذبه أصلان، لكلّ أصلٍ أدلته:

- **الأصل الأول**: هو الأمر بالسؤال والحث على طلب العلم، وأدلته كثيرة معلومة أبرزها:

١- قوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]

٢- وقوله ﷺ: "من يُرِدِ اللّه به خيرا يفقهْه في الدين". متفق عليه

٣- وقوله ﷺ: "ألا سألوا إذْ لم يَعلَموا، فإنما شِفاءُ العِيّ السُّؤالُ"[2] أي شفاءُ الجهل السؤال.

وورد غيرُ ذلك من الأدلة، والمقصود منها الحث على السؤال للتعلم والاسترشاد وإزالة الشبهات فيما ثبت أنه من الشريعة.

- الأصل الثاني:

النهي عن كثرة السؤال، وهذا هو موضوعنا، ولفظ (بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ)[3] يوضح أساس الموضوع، فإنه يشير إلى ذَمِّ الغلوّ والتعمق فيما لا ينفع، أو فيما يضر.

وهذا الأصل نوعان:

1- [النحل: ٤٣] [الأنبياء: ٧].

2- أبو داود (٣٣٦، ٣٣٧) و ابن ماجة (٥٧٢).

3- عند مسلم (١٣٣٧)

- النوع الأول: خاص بوقت نزول الوحي،
- والنوع الثاني: عامٌّ يشمل وقت الوحي وغيره وإلى قيام الساعة.

● أما النوع الأول:

فهو النهي عن السؤال عمّا لم يُذكَرْ في القرآن وقت نزول الوحي، أي لم ينزلْ فيه تحريم ولا تحليل.

والحكمة من هذا النهي: التيسير على الأمة في التشريع، حتى لا يكون السؤال سبباً في تحريم شيءٍ مَعْفُوٍّ عنه، أي شيءٍ عفا الله عنه، فلم يوجبْه ولم يُحَرِّمْه، فيأتي هذا السؤال فيُفرَض على الأمة شيءٌ لم يكن مفروضاً عليها. والأدلة على هذا النوع كثيرة، منها:

- الدليل الأول:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[1].

هذه الآية هي الأصل في هذا النوع، وهي شِقّان، في كل شِقٍّ حُكْم:

♦ الشِقّ الأول في الآية قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، ويتعلق بهذا الشِّق قوله ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾، ومعناه أنه لا يجوز - وقتَ نزول الوحي - السؤالُ عن أشياء قد عفا الله عنها، أي لم يوجبْها ولم يُحرّمْها.

قال ابن كثير: (أي ما لم يذكرْه في كتابه فهو مما عفا عنه فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها). انتهى.

♦ الشِقّ الثاني في الآية قوله ﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾، والمعنى أنه يجوز السؤال عمّا نزل، لتعَلُّمه والعمل به.

فنهاهم في هذه الآية عن السؤال عمّا لم ينزلْ في القرآن وقت نزول الوحي، وهذا من رحمة الله بعباده، حتى لا يُفرَض عليهم.

1- [المائدة: ١٠١]

والأصل في ذلك راجع إلى قصة بقرة بني إسرائيل المعلومة، فإن بني اسرائيل لم يزالوا يتعنّتون ويُشَدِّدون حتى شدَّدَ الله عليهم، ولو أخذوا أيّ بقرة منذ البداية وذبحوها لأجزأتْهم.

- الدليل الثاني:

حديث الترجمة، والشاهد منه قوله ﷺ: "**دعوني ما تركتكم**".

حدث هذا في قصة وقعت، ذكرها الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسولُ الله ﷺ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا»، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ "، ثُمَّ قَالَ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»[1] فتأمّل حجم المشقّة على الأمة لو كان الحج واجباً كل عام!!

- الدليل الثالث:

لذلك قال ﷺ: «إن أعظم المسلمين جُرْما، مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»[2].

- أمّا (النوع الثاني):

فهو النهي عن التّعمّق فيما لا ينفع أو فيما يضر: وهذا النهي باقٍ في كل وقت وإلى قيام الساعة، وليس خاصّاً بوقت نزول الوحي، ويدخل في ذلك السؤالُ عمّا لم نُكلَّف به، مثلُ السؤال عن الغيبيات، كالقدر والصفات الإلهية وكل ما لم ينزل في الكتاب والسنة.

فيسأل أحدهم: (لِمَ فعَل اللهُ كذا؟ ولِمَ لم يفعَل كذا؟)... يخوض في القدَر فيما فوق أركانه الأربعة المعلومة!، وتقدم في دروس مضت أنّ هذا من البِدَع المُحَرّمة، لأن عقل الإنسان أصغرُ

1- أخرجه مسلم (٣٣٧-٤١٢).

2- متفق عليه: البخاري (٧٢٨٩) ومسلم (٢٣٥٨).

بكثير من أن يدرك حكمة الخالق سبحانه في تقدير الكون، فالواجبُ التسليمُ والانقيادُ وتركُ السؤال في القدَر؛ يعني فيما فوق أركانه الأربعة المعلومة.

وكذلك لا يجوزُ السؤالُ عن كيفية الصفات الإلهية: كيف استوى؟ وكيف يجيء؟ كيف يضحك؟ كيف يتكلم؟ كيف وكيف..!

هذا السؤالُ عن كيفية الصفات بدعة، لأن الكيفية من الغيب الذي لم يخبرنا الله عنها، فلا سبيل بعد ذلك لنا لمعرفتها، أضف إلى ذلك أننا لم نُكَلَّف بها، ولا نُسألُ عنها، فلماذا نسألُ نحن عنها؟!

وأهلُ البدع ضلّوا من هذا الباب، لأنهم خاضوا في "الكيفية" بعقولهم المجردة عن الوحي؛ فتوهّموا من إثبات حقيقة الصفات التشبيه بالمخلوق، فأرادوا التنزيه، فوقعوا في التعطيل، وألحَدوا في أسماء الله وصفاته.

والعصمةُ في مسائل الغيب عموما والصفات خصوصا هو اتّباع منهج السلف الصالح، وهو: إثبات المعنى حقيقة بلا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه بلا تعطيل، والسكوت عما لم يصح فيه دليل، ومن ذلك عدم الخوض في كيفية الصفات، ومنه ترْكُ الخوض في الغيب: لا (لِم؟)، ولا (كيف؟).

وأدلة هذا النوع الثاني كثيرة أبرزها:

- قوله ﷺ: "إن الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال"[1].
- وقوله ﷺ: "هلك المتنطعون"[2]، قالها ثلاثاً، ويدخلُ في ذلك البدعُ بأنواعها ومنها: السؤالُ المذمومُ.
- وأخرج البخاري بسنده عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ: «نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ»[3] والناهي هو الرسولُ ﷺ، فهذا الحديثُ في حكم المرفوع كما قال أهلُ العلم.

1- متفق عليه: البخاري (١٤٧٧، ٢٤٠٨، ٥٩٧٥، ٦٤٧٣، ٧٢٩٢)، ومسلم (١٧١٥، ٥٩٣).

2- أخرجهُ مسلم (٢٦٧٠).

3- أخرجهُ البخاري (٧٢٩٣).

أمّا معناهُ، فقال ابنُ الأثير:(وَحَدِيثُ عُمَرَ «نُهِينا عَنِ التَّكَلُّف» أَرَادَ كثرةَ السُّؤال، والبَحْثَ عن الأشياء الغامِضة التي لَا يَجِب البَحْث عَنْهَا، والأخْذ بظَاهِرِ الشَّريعة وقَبُول مَا أتَت بِهِ) انتهى.[1] يعني يجبُ الأخذُ بظاهر الشريعة، ويجبُ قبولُ ما أتت به.

- أنّ السلف الصالح رضي الله عنهم أجمَعوا على أنّ السؤال عن كيفية الصفات بدعة، والمشهورُ في هذا قولهم: (أمِرُّوها كما جاءت بلا تفسير)، أي بلا تفسير للكيفية، وكانوا يعدون السؤال عن الكيفية بدعة لأنه من التكلُّف؛ أي من السؤال عمّا لم نُكَلَّف به، ولذلك قال الإمام مالك وغيره من السلف كلمته المشهورة لمّا سُئل: (كيف استوى؟) قال: (الاستواءُ معلوم، والكيفُ مجهول، والإيمانُ به واجب، والسؤالُ عنه بدعة)، والشاهد في قوله (والسؤال عنه بدعة)، يعني السؤال عن كيفيته.

هذا فيه الحرص على حُسن السؤال،

سؤال يسأله الإنسان بغير علم، فيقع في البدعة! كيف استوى؟ كيف يضحكُ؟ كيف يجيءُ؟ (مجرد سؤال)!! هكذا يقولون! لكنه سؤال مُحَرَّم لأنه بدعة.

ويدخل في ذلك الجدال في الدين لأنه من التكلف، يَحرُم الجدال في الدين على وجه المغالبة كما تعلمون، ولا ينبغي أن يسترسل الإنسان في الجدل لإثبات ما عنده ولو كان على الحق، ولكن قل كلمة الحق التي تعلمها، وبين دليلها، ثم اسكت ولا تُجادِل.

ومن ذلك الجدال مع العلماء للمغالبة فإنه مُحَرَّم أيضاً، لأنه من التَّكَلُّف، لا تُثقِل على العالِم بأسئلة لا يترتَّب عليها عقيدة ولا عمل، أو أسئلة لم تقع، وتذهب تجادل في ذلك، فهذا ليس من حسن السؤال.

وحديث الترجمة يتناول الأنواع التي تقدمَتْ، فإنّ فيه ما يُنَجِّي من الغُلُوِّ في السؤال، ومن التنقير عن مسائل لم يُكَلِّفنا الله بها، فقال ﷺ:

1- النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير(٤/ ١٩٦).

- "دعوني ما تركتكم":

أمَر بالكَفِّ عن كثرة السؤال. لماذا؟

- أولا: لأن كثرة السؤال فيها مشقة على الرسول ﷺ، ومَن جلَب المشقة على رسول الله يهلك.

- ثانياً: لأنّ في كثرة السؤال تَعَنُّتاً وتَكَلُّفاً قد يفضي الى فرض شيء معفو عنه كما تقدم بيانه، وهذا فيه مشقة على الأمة.

فهاتان مفسدتان عظيمتان في السؤال عمّا لم ينزل في القرآن: إما مشقة على الرسول، أو مشقة على الأمة، لذلك أمَرهم الرسول ﷺ وقال: "دعوني ما تركتكم".

وهنا فائدة أصولية:

في جملة "دعوني ما تركتكم"، قال العلماء: (فيها دليل على أنّ الأصل عدم الوجوب)[1]

أي أن الأصل براءة الذمة قبل ورود الشرع، فلا يفرض على العباد شيء حتى يؤمروا به، فإذ سألوا الرسول عن شيء وأمرهم به صار واجباً عليهم، هذا معنى قولهم إن الأصل عدم الوجوب.

ثم قال ﷺ - مُعلّلاً هذا الحكم؛ وهو النهي عن كثرة السؤال -:

- "فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم":

هذه علة النهي، وهي كثرة السؤال إلى حد التنطع، فهلكت الأمم السابقة لأنهم سألوا عن أشياء ثم لم يمتثلوها وجحدوها، كما قال تعالى بعد أن نهى عن كثرة السؤال عما لم يُنَزَّل من القرآن:

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾[2].

هذا بعد قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ التي تقدمت.

1- "شرح النووي" على صحيح مسلم: (٩/ ١٠١).

2- [المائدة: ١٠٢]

فهذا فيه تحذير واعتبار بما وقع من الأمم قبلنا، حتى لا نقع فيما وقعوا فيه. قال المفسرون: كقوم صالح عليه السلام لمّا سألوه أن يأتيهم بآية على صدق نبوته، فجاءهم بالناقة فكفروا بها وعقروها فهلكوا، وكما سألت النصارى المائدة من عيسى عليه السلام ثم كفروا بها.

ولذلك قال الحافظ ابن رجب:

(وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يُرَخِّصُ فِي الْمَسَائِلِ إِلَّا لِلْأَعْرَابِ وَنَحْوِهِمْ مِنَ الْوُفُودِ الْقَادِمِينَ عَلَيْهِ، يَتَأَلَّفُهُمْ بِذَلِكَ، فَأَمَّا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ الْمُقِيمُونَ بِالْمَدِينَةِ الَّذِينَ رَسَخَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، فَنَهَوْا عَنِ الْمَسْأَلَةِ، كَمَا فِي " صَحِيحِ مُسْلِمٍ "[1] عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: أَقَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ سَنَةً مَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْهِجْرَةِ إِلَّا الْمَسْأَلَةُ، كَانَ أَحَدُنَا إِذَا هَاجَرَ لَمْ يَسْأَلِ النَّبِيَّ ﷺ. وَفِيهِ أَيْضًا[2] «عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ، فَيَسْأَلُهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ») انتهى[3]

هذا النهي عن السؤال المذكور في هذه الأحاديث كان في زمن نزول الوحي، للأسباب التي تقدم ذكرها، ولكنه عامّ إلى يوم القيامة في السؤال عمّا لم يقع، أو في أمور الغيب كما تقدم تفصيله.

ثم قال ﷺ: «فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

فبيَّن ما هو المطلوب منا: المطلوب هو العمل، الواجب أن يشتغل العبد بالعمل، وأن يكون همّه الانتهاء عن المحرّمات وامتثال الواجبات، وأن يعتقد العقيدة الصحيحة، وألا يلتفت إلى غير ذلك. ولا بأس بالسؤال عمّا يوضح ذلك بعد أن ينزل القرآن، بل يجب السؤال أحيانا كما تقدم بيانه.

فالمراد من هذه الجملة أن يكون هم المسلم العمل.

وهذه الجملة فيها فوائد أخرى زائدة على موضوع الحديث، وهي:

▫الفائدة الأولى: أن النهي للتحريم، وأن الأمر للوجوب.

1- مسلم (٢٥٥٣).

2- مسلم (١٢)

3- "جامع العلوم والحكم "للحافظ ابن رجب (١/ ٢٤٢)، و"تفسير ابن رجب ": (١/ ٤٥١).

▫ الفائدة الثانية: أن المنهي عنه يجب تركه إلا ما استثني بنص أو باضطرار، فهذا غير داخل في النهي أصلاً، وهو قوله عليه السلام: «فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ"، ولم يُعلِّقه على الاستطاعة، لأن "النهي": طلبُ كَفٍّ عن الفعل، وهذا ليس فيه كلفة.

أما في "الأمر" فقال: "وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُم".. فعلَّق "الأمر" على الاستطاعة، لأن "الأمر": طلب إيجاد فعل، وهذا يحتاج إلى كلفة ويحتاج إلى قدرة، ولذلك علَّق الله التقوى بالاستطاعة، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[1]

والمقصود من الاستطاعة في هذه الآية أمران:

١) بذل الوسع في فِعْل المأمور.

٢) فإن عَجِز سقط عنه الأمر والتكليف بقدر عجزه، فقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2].

وهذه الجملة "وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُم" باب كبير تحته أفراد كثيرة جداً لا تحصى من المسائل الشرعية، ذكر طائفة منها الشيخ المُصنِّف في شرحه (**بهجة قلوب الأبرار**)، وذكر أيضا رؤوسَ المسائل النوويُّ في شرح مسلم، وذلك في مسائل الطهارة والصلاة والصيام والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقرعة عند تزاحم الحقوق،

وأيضاً عند تعارُض النصوص الشرعية؛ فيقوم الفقيه بإعمال قواعد الأصول في ذلك، بالنظر إلى النسخ فالجمع فالترجيح فالتوقف كما هو مبين في مواضعه من علم أصول الفقه.

وكل هذه المسائل راجعة إلى قوله ﷺ: "وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُم".

ويتفرع عن هذه الجملة قاعدة عند أهل العلم هي أن: (**الميسور لا يسقُطُ بالمعسور**) ومعناها ما قاله الشيخ السعدي في شرحه لحديث الترجمة في "**بهجة قلوب الأبرار**": (وهكذا جميع ما أُمِرَ به العبد أمرَ إيجاب أو استحباب، إذا قَدِرَ على بعضه، وعَجَزَ عن باقيه، وجَبَ عليه ما يَقدِر عليه، وسَقَطَ عنه ما عَجَزَ عنه. وكلها داخلة في هذا الحديث) انتهى.

1- [التغابن: ١٦]

2- [البقرة: ٢٨٦]

فهذه الجملة خصوصا - والحديث عموماً - من جوامع كلامه ﷺ.

وفي هذا الحديث إرشاد إلى حسن الأدب مع العالِم والشيخ المُعلِّم، وذلك بحُسن السؤال، وحُسن القصد من السؤال، وعدم الإكثار عليه، وعدم السؤال عمّا لم يقع أو سؤال الأغاليط، أو السؤال لامتحان الشيخ؛ هذا كله ضار جداً لطالب العلم، فإنه يُفسِد نيته أولاً، ويحجب عنه نور العلم ثانياً.

فهذا الحديث فيه من محاسن الآداب لطالب العلم مع شيوخه الشيء الكثير، وفيما أشرنا كفاية إن شاء الله.

﴿شرح الحديث الثاني والثمانين﴾

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ، لَا يَرْحَمُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ**» متفق عليه (*).

الشرح:

هذا لفظ مسلم، ولفظ البخاري: "لا يَرْحَمُ الله من لا يَرْحَمُ الناس"[1]، واللفظ الآخر عنده: «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»[2].

وروي حديث الترجمة بالرفع وبالجزم:

- فعلى رواية الرفع: تكون (مَنْ) موصولة بمعنى الذي، ويكون الحديث على وجه الخبر.

- وعلى رواية الجزم: تكون (مَنْ) شرطية، ويكون الحديث على وجه الشرط(**).

.....

(*) أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له[3]، وفي الباب عدة أحاديث، منها:

- حديث أبي هريرة متفق عليه بلفظ: «إِنَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ».[4]

- وحديث عائشة متفق عليه: «أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ».[5]

- وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص: الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ».[6]

- وحديث أسامة بن زيد: "ولا يرحم الله من عباده الا الرحماء" وفي لفظ " إنما يرحم الله من عباده الرحماء" متفق عليه.[7]

1- البخاري (٧٣٧٦).

2- البخاري (٦٠١٣).

3- أخرجه البخاري (٧٣٧٦، ٦٠١٣) ومسلم (٢٣١٩)

4- أخرجه البخاري (٥٩٩٧) ومسلم (٢٣١٨)

5- البخاري (٥٩٩٨) ومسلم (٢٣١٧)

6- أخرجه أبو داود (٤٩٢١)، والترمذي (١٩٢٤) وصححه الألباني في "الصحيحة"(٤٨٢).

7-البخاري (١٢٨٤، ٥٦٥٥، ٦٦٠٢، ٦٦٥٥، ٧٣٧٧، ٧٤٤٨) ومسلم (٩٢٣).

(**) قال بدر الدين العيني: (من لَا يرحم لَا يرحم) بالرَّفْع والجزم فيهمَا قَالَه الْكرْمَانِي قلت: الرّفْع على الْخَبَر والجزم على أَن: من شَرْطِيَّة) انتهى.[1]

ثم ذكر وله وجهين آخرين أيضاً، فالمجموع أربعة وجوه. وذكَر هذه الوجوه أيضا الحافظ ابن حجر في "الفتح" (١٠/ ٤٢٩).

.....

هذا الحديث فيه:

- بيان أهمية خُلُق الرحمة عند الإنسان، وأنه من أسباب رحمة الله للعباد.

- وفيه خطورة عدم الرحمة الواجبة.

فإنه مما لا يخفى أنّ الإسلام دين الرحمة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2]، فإن الله تبارك وتعالى رحيمٌ، والرحمة من صفاته تبارك وتعالى، ومن صفات رسوله ﷺ، ومن صفات الصالحين، فدلّ الحديث على إثبات صفة الرحمة لله؛ رحمةً حقيقيةً تليق بكماله وجلاله، ولا تشبه رحمة المخلوق لأنه سبحانه ليس كمثله شيء.

وأهل البدع توَهَّموا أنّ إثبات الرحمة لله يقتضي تشبيه الله بخَلقِه، لأنهم توَهَّموا أنّ الرحمة عند الله مثل الرحمة عند المخلوق، فعطَّلوا صفة الرحمة. توَهَّموا التشبيه، فأرادوا التنزيه، فوقعوا في التعطيل، فقالوا: (الرحمةُ معناها إرادة الإحسان) !، ففسروا الرحمة بلازمها وآثارها.

وأهل السنة لا ينكرون هذه اللوازم، ولكن وفي نفس الوقت لا يُعَطِّلون صفة الرحمة، بل يُثبتون ما أثبَته الله لنفسه، من غير تمثيله بخَلْقِه، ولا يخوضون في الكيفية.

ولا تُعرَف كيفية الصفات، لأنّ إثبات الصفات كإثبات الذات، فكما نُثبِت لله ذاتاً ليست كالذّوات، ولا نعرف كيفية ذاته سبحانه، فكذلك نثبت الصفات ولا نعرف كيفيتها، لأن الله لم يخبرنا عنها ولم يُكَلِّفنا بمعرفتها.

وقاعدة أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات معلومة، وهي:

1- "عمدة القاري شرح صحيح البخاري" (٢٢/ ١٠٠)،

2- [الأنبياء: ١٠٧]

أن نُثبِت لله ما أثبتَه لنفسه من غير تمثيل، ونُنَزِّهه عن كل نقص من غير تعطيل، ونسكت عمّا لم يَرِد عليه دليل؛ أي نسكت فلا نُثبته ولا ننفيه، لأنّ الله سكت عنه.

قال الشيخ العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله: (والرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الذاتية الفعلية؛ فهي باعتبار أصل ثبوتها لله صفة ذاتية؛ وباعتبار تجدد من يرحمه الله صفة فعلية؛ ولهذا علقها الله سبحانه وتعالى بالمشيئة في قوله تعالى: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾[1] فهي صفة حقيقية ثابتة لله عز وجل؛ وأهل التأويل ــ والأصح أن نسميهم أهل التحريف ــ يقولون: إن الرحمة غير حقيقية!؛ وأن المراد برحمة الله إحسانه أو إرادة الإحسان!؛ فيفسرونها إما بالإرادة؛ وإما بالفعل. وهذا لا شك أنه خطأ، وحجتهم: أنهم يقولون: إن الرحمة رقة ولين، والرقة واللين لا تناسبان عظمة الخالق سبحانه وتعالى.

فنقول لهم: إن هذه الرحمة رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق فإنها تليق به سبحانه وتعالى؛ ولا تتضمن نقصاً؛ فهو ذو رحمة بالغة، وسلطان تام؛ فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين) انتهى[2]

إذن فموضوع هذا الحديث هو: الرحمة عند الإنسان.

والرحمة عند الإنسان هي: (رقّة القلب)، فهي صفة في القلب أصلاً، وتظهر آثارها على الجوارح في صور مختلفة، منها:

العفو عن المُسيء، والإحسان إلى الخَلْق والتَّلطُّف بهم، وإعانتهم على ما ينفعهم، ونصحهم، ومنها البكاء شفقة ورحمة على من أصابه مكروه، وغير ذلك من صور الرحمة الكثيرة.

فالرحمة رِقّة جعَلها الله في القلب، تُثمِر الإحسان إلى جميع الخَلق، فيدخل في ذلك رحمة الإنسان والحيوان.

ويدخل المسلمون أولاً، ثم الكافر غير الحربي، أمّا الكافر المُحارِب فلا تُشرَع الرحمة معه، لقوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[3]، ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[1]

1- [العنكبوت: ٢١]

2- "تفسير الفاتحة والبقرة" للشيخ العقيمين: (٢/ ٢٥٢).

3- [الفتح: ٢٩]

والحكمة في ذلك والله أعلم - أي الحكمة في الغلظة مع الكافر المحارب وعدم رحمته - أنه من الرحمة بالكافر الحربي الإغلاظ عليه والشدة معه، حتى يرجع عن صَدِّه عن سبيل الله، فنحن نحاربه لنمنعه من هذا الإثم العظيم، وهذه رحمة له، لأنه قد يدخل بسبب ذلك في الإسلام، ولو لم يدخل هو في الإسلام؛ فهي رحمة لغيره من الناس حتى يدخلوا في دين الله، فيتنَعَّموا به في الدنيا والآخرة، والإسلام أعظم نعمة على الإطلاق.

وهذه الرحمة التي في هذه الدنيا هي جزءٌ من مائة جزء من الرحمة، قال النبي ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2]

ما أرحمَ اللهَ بعباده! أخّر تسعة وتسعين رحمة لشدائد يوم القيامة، فإن عذاب الآخرة شديد لا يُقارَن بعذاب الدنيا.

وما أعظمَ رَحَمَاتِهِ سبحانه! فكلُّ ما نراه من تراحم في هذه الدنيا ورأفة وعطف بين الخلائق فهو من رحمة واحدة من رحماته!

وكل ما نراه من رحمة فهو من فضل الله تبارك وتعالى وجوده ورحمته بعباده، فله الفضل كله وله الحمد كله.

والرحمة من محاسن الأخلاق عند المؤمن، وهي عبادة وقُربة عظيمة لله لِمَن احتسبها عنده سبحانه، فينبغي الحرص عليها وعلى أسبابها.

والرحمة نزلَت في قلوب العباد على نوعين: جِبِلِّيَّة ومُكتَسَبة.

فمَن جَبلَه الله على الرحمة فليحمدِ الله على هذه النعمة، وليُصَوِّب نيَّته فيها حتى تكون خالصة لله، يعني عندما ترحم مخلوقاً احتسِب الأجر عند الله، وضعها في مواضعها حتى تثاب عليها.

لأن هذه الرحمة التي في قلبك نعمة من الله، ومن شكر النعمة أن تستعملها في طاعة الله تريد بها وجه الله، فضَعْها في موضعها، أي في غير الكافر المحارب كما تَقدم بيانه.

1- [التحريم: ٩]

2- متفق عليه من حديث أبي هريرة: البخاري (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٢)، وأخرجه مسلم من حديث سلمان (٢٧٥٣).

وأمّا من لم يُجبَلْ على الرحمة، ونُزِعَتْ الرحمة من قلبه، فعليه أن يتعلمها ويطلبها وذلك بمعرفة أسبابها ومواضعها وثوابها، عملاً بحديث الترجمة هذا وغيره من الأدلة التي تحث على التراحم.

فإنّ حديث الترجمة فيه حثٌّ على استعمال الرحمة، وحث على اكتسابها لمن لم يجبلْ عليها، فقال ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ، لَا يَرْحَمُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ»، وفي القراءة الأخرى: «مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ، لَا يَرْحَمْهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ» بالجَزْم.

وهذا وعيد شديد للذين يظلمون الناس ولا يرحمونهم، وذلكم الوعيد هو أن الله لن يرحمهم، وأطلَق ذلك فيشمل الدنيا والآخرة، أي قد لا يُرحَمُ في الدنيا، وقد لا يُرحَمُ في الآخرة، وقد لا يرحم لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهذه عقوبة شديدة جدا، فمَن هذا الذي يستغني عن رحمة ربّه ؟!

فهذا فيه حثٌّ على استعمال الرحمة، وحثٌّ على اكتسابها لِمَن قسا قلبه وخلا من الرحمة، لأن الوعيد في الحديث عامٌّ يشمل مَن جُبِلَ على الرحمة، ومَن جُبِل على الجفاء والقسوة، يجب على هذا وهذا أن يرحموا الخَلْق، فلا يُستَثنى من هذا الوجوب أحد إذا كانت الرحمة واجبة. وليس له أن يقول "أنا مجبول على الشّدة والغِلظة"، هذا ليس عذراً له، فإنّ الإنسان يُبتلى بخِصال يُجبَل عليها، قد يُبتلى الإنسان بمحبة القتل أو محبة الزنا أو محبة السرقة، قد يُجبَل على الكِبْر... وغير ذلك من خصال الشر، والواجب على العبد أن يُجاهِد نفسه ويهذبها من شرورها، وكان النبي ﷺ كثيراً ما يقول في خطبه: "ونعوذ بالله من شرور أنفسنا"، وهو الذي طهر قلبه مرتين، ولكن هذا تعليم لنا.

وقد قال النبي ﷺ لرجلٍ نُزِعَتْ الرحمة من قلبه، لأنه لا يُقَبِّل صبيانه؛ فقال له: «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»[1]

والذي يرحم الناس هو في الحقيقة يرحم نفسه، وذلك لأن الحديث - حديث الترجمة - له منطوق وله مفهوم: منطوقُه دلّ على أنّ الذي لا يرحم الناس لا يرحمه الله، ودلّ مفهومُه على

1- البخاري (٥٩٩٧، ٦٠١٣) ومسلم (٢٣١٨)

أنّ الذي يرحم الناسَ يرحمه الله، فإذن أنت عندما ترحم الناس ترحم نفسك في الحقيقة، هذا لأن الجزاء من جنس العمل.

ومن أدَلِّ الأحاديث وأصرحها في بيان هذا المعنى حديثان:

الأول: حديث امرأة بَغِيّ من بني إسرائيل، كانت تقع في عذه الفاحشة العظيمة، لكنها في يومٍ رَقَّتْ لكلبٍ يكاد يموت من العطش، فسَقَتْه شربة ماء ورحِمَتْه ابتغاء مرضاة الله، فنالت بذلك رحمة الله وعفوه، فغفر لها.

فإذا كانت الرحمة بالحيوان تغفر هذه الكبائر العظيمة، فما بالكم برحمة الإنسان؟! ولو كان كافراً، ما لم يكن محارِباً، فضلاً عن أن يكون مسلماً، فضلاً عن أن يكون صالحاً، أو قريباً أو جاراً أو طفلا؟!

الثاني: عكس هذا الحديث، وهو خبر تلكم المرأة التي تَحَجَّر قلبها وقسا، فعذَّبت هرّةً بالجوع والعطش وحبستها حتى ماتت، فرآها النبي ﷺ يوم صلاة الكسوف في النار.

دخَلَت النار بسبب هرّة! فما بالكم بمن يُعذِّب البشر؟! فهذا الحديث وحديث الترجمة فيه بشارةٌ لهم بجهنم نسأل الله السلامة، إلا أن يتوبوا أو يدركهم عفو الله.

فهذه أعظم موعظة نستفيدها من حديث الترجمة وما كان في معناه، وهي: الحرصُ على رحمة الخَلق والحذر مِن ظُلْمِهم أو التَّسَبُّب في إيقاعهم في الشدة والحرج، أو التسبب في سفك دمائهم وتشريدهم من أوطانهم كما نرى اليوم.

والسبيل إلى تحقيق ذلك الاقتداء برسول الله ﷺ، فلنا في رحمة نبينا ﷺ أسوة حسنة:

• فكان عليه الصلاة والسلام رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين، كما وصفه ربه فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، كان عليه السلام رحيم القلب بالمؤمنين، لَيِّن الجانب، سهل العريكة مع كل من يتعامل معه، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ

1- [التوبة: ١٢٨]

حَوْلِكَ﴾[1]، ولو (انفَضُّوا مِن حوله) لرفضوا الإسلام وكفروا وهلكوا ! ولكن من رحمة الله بنبيه وبالناس أن جعله لَيِّناً رحيماً حتى لا ينفَضَّ الناس من حوله، وحتى لا يكفروا بالإسلام، فهذا من رحمة الله بعباده، فالحمد لله على فضله.

• كان ﷺ يدعو إلى الله بلينٍ ورحمة، وهذا فيه دليل على أنّ الداعية إلى الله يجب أن يكون شعاره الرحمة والرفق واللين، أنْ يكون رحيماً بالناس مُشفِقاً عليهم، رقيق القلب معهم، حتى يُقبِلوا عليه ويَقبَلوا دعوته، وألاّ يُنَفِّرهم، فقد يكون الداعية الفظُّ سبباً في هلاك الناس، لأنه يَصُدُّهم عن الحق، قال النبي ﷺ: "إن منكم مُنَفِّرين".[2]

المنَفِّرُ يُنَفِّرُ الناسَ لأنه يشدد عليهم فوق ما شرعه الله، فمن الناس من ترك صلاة الجماعة بسبب تشدد بعض الأئمة، ومن الناس لا يدخلون في الإسلام بسبب غِلظَة بعض المسلمين وسوء أخلاقهم، وهذا واقع لا يُنكَر في زماننا، فإنّ أخلاق كثير من المسلمين اليوم تَصُدُّ عن دخول الكفار في الإسلام وهم لا يعلمون.

• وكان من رحمته عليه الصلاة والسلام بالأطفال وأمهاتهم، أنه يتَجَوَّز في صلاة الجماعة إذا بكى الطفل رحمةً بالطفل وأمه، يتَجَوَّز من غير إخلالٍ في أركان الصلاة.[3]

• ومن رحمته عليه السلام أنه بكى لموت ولد ابنته، "فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله، ما هذا؟! فَقَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»[4]

وبكى أيضا يوم موت ولده إبراهيم.[5]

• ومن رحمته عليه السلام أنه كان يُقَبِّل الصبيان ويداعبهم ويلاعبهم، فقال الأعراب: "أَتُقَبِّلُونَ صِبْيَانَكُمْ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالُوا: لَكِنَّا وَاللهِ مَا نُقَبِّلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَأَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللهُ نَزَعَ مِنْكُمُ الرَّحْمَةَ».[6]

1- [آل عمران: ١٥٩]

2- البخاري (٧٠٢، ٧٠٤، ٦١١٠، ٧١٥٩)، مسلم (٤٦٦)

3- انظر: البخاري (٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٨٦٨) ومسلم (٤٧٠)

4- البخاري (١٢٨٤، ٦٦٥٥، ٧٣٧٧، ٧٤٤٨) مسلم (٩٢٣)

5- متفق عليه: البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥)

6- البخاري (٥٩٩٨) ومسلم (٢٣١٧).

• وكان ﷺ رحيماً بأعدائه: فلم يَدْعُ على الذين آذوه في مكة، وضربوه بالحجارة في الطائف، بل دعا لهم بالهداية، فاهتدى الكثير منهم ممن سبقَتْ له الحسنى.

والرحمة منها واجبةٌ، ومنها مستحبة، قال المازري: (ومن الرحمة واجبة؛ وهى كفّ الأذى عن المسلمين، وإغاثة الملهوف، وفكّ العاني، وإحياء المضطر، واستنقاذ الغريق، والواقع فى هلكته وتسميته[*1]، ومن ذلك: سَدّ خَلّة الضعفاء والفقراء من الواجبات).[2]

وهذه التي ذكَرَها المازري مجرد أمثلة وليس المقصود الحصر، بل المقصود أنّ كل ضر تستطيع رفعه عن غيرك، وكل مصلحة ضرورية تستطيع إيصالها لهم يُعتبَر من الرحمة الواجبة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3]

وهذه الآية جامعة لكل ما تقدم ذكره بل وتزيد عليه، لأنها تشمل المُحسِنين في عبادة الله، والمحسنين مع عباد الله. فالذي بلغ درجة "الإحسان في العبادة" ودرجة "الإحسان في الرحمة" أي في معاملة جميع الخلق؛ فرحمة الله قريبة منه بنَصّ هذه الآية، والعكس بالعكس، فاختر لنفسك.

قال الشيخ العلامة السعدي في تفسيرها: (﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة اللّه، المحسنين إلى عباد اللّه، فكلما كان العبد أكثر إحسانا، كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريبا منه برحمته، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى) انتهى.

نسأل الله العظيم أن يجعلنا رحماء مرحومين

هذا والله تعالى أعلم، وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك و أتوب إليك.

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

1- لعلها: (ومصيبته).

2- انتهى من "إكمال المعلم بفوائد مسلم" (٧/ ٢٨٣).

3- [الأعراف: ٥٦]

أسئلة الدرس الثاني والثلاثين

السؤال الأول: من معاني قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١]:

أ- أنه لا يجوز السؤال مطلقا وقت نزول الوحي.

ب- أنه لا يجوز السؤال مطلقا بعد نزول الوحي.

ج- أنه لا يجوز السؤال وقت نزول الوحي عما لم ينزل في القرآن.

د- جميع ما ذكر

الجواب: (ج).

السؤال الثاني: من معاني قوله ﷺ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»

أ- أنه لا يجوز السؤال عما لم ينزل في القرآن.

ب- أنه لا يجوز الإثقال على الرسول بكثرة السؤال.

ج- أنه لا يجوز التعمق في السؤال عما لم نكلف به أو فيه ضرر.

د- جميع ما ذكر.

الجواب: (د).

السؤال الثالث: "كيف استوى؟"، هذا سؤال محرم، لأنه سؤال عن كيفية الغيب التي لم يخبرنا الله عنها؛ فلا سبيل إلى معرفتها، ولذلك لم يسأل الصحابة هذا السؤال.

الجواب: (صحيح).

السؤال الرابع: المراد بقول النبي عليه السلام: «وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»:

أ- بذل الوسع في تنفيذ المأمور.

ب- فإن عجز العبد سقط عنه التكليف فيما عجز عنه.

ج- ولا يسقط التكليف عما لم يعجز عنه.

د- كل ما ذكر صحيح.

الجواب: (د).

السؤال الخامس: قال أنس بن مالك في صحيح مسلم (١٢): (نُهينا أن نسأل رسولَ اللهِ ﷺ عن شيءٍ، فكان يُعجِبُنا أن يجيءَ الرجلُ من أهلِ الباديةِ العاقلُ، فيسألُهُ ونحنَ نسْمعُ). وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣][الأنبياء:٧]، وأيضا ورد في عدد من الآيات: ﴿يَسْأَلُونَكَ...﴾.

فكيف الجمع بين هذه النصوص؟

أ- المراد أنه لا يجوز السؤال عما لم ينزل في القرآن، ويجوز السؤال عما نزل.

ب- المراد أنه لا يجوز الإثقال على الرسول بكثرة السؤال، ويجوز السؤال من غير أثقال عليه.

ج- المراد أنه لا يجوز التعمق في السؤال عما لم نكلف به أو فيه ضرر، كالسؤال بكيف؟ ولم؟ في الغيبيات.

د- جميع ما ذكر.

الجواب: (د).

السؤال السادس: قال ﷺ: «**مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ، لَا يَرْحَمْهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ**» فيه دليل:

أ- على أن الله موصوف بالرحمة صفة حقيقية ذاتية وفعليه؛ ولا تشبه الرحمة عند المخلوق.

ب- على أن المراد بالرحمة إرادة الإحسان، ولا يوصف الله بالرحمة حقيقة، لأنه يلزم من ذلك تشبيهه بخلقه.

ج- كل ما ذكر.

د- لا شيء مما ذكر.

الجواب: (أ).

السؤال السابع: إذا كان الإنسان مجبولا على القسوة فإنه معذور إذا لم يرحم الناس، لأنه نزعت الرحمة من قلبه.

الجواب: (خطأ).

السؤال الثامن: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] **معناه**:

أ- أن رحمة الله قريب من المحسنين في عبادة الله.

ب - أن رحمة الله قريب من المحسنين إلى عباد الله.

ج- أنه كلما زاد إحسان العبد كان أقرب إلى رحمة الله.

د- كل ما ذكر.

الجواب: (د)..

❁ ... والحمد لله رب العالمين... ❁

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁